اللباس

ومقامهُ في الاجتماع

ليس اللباس بالفضلة او بالهنة العرضية في شؤون الاجتماع بل هو عمدة لا يستغنى عنها ولازمة جوهرية من لوازمنا منذ فتحت اعين ابوينا الاولين في جنة عدن ورأيا انهما عريانان فخاطا لهما مآزر من ورق التين لستر عورتهما. وشرُّ المآزر ورق التين. هـذا في مذهب. وفي مذهب ثانٍ ان غاية اللباس الاولى وقاية الجسم من الحرّ والبرد والثانية ستر العورة. وفي مذهب ثالث ان غاية اللباس الاولى الزينة وهو المذهب المرجوح في ظني. ذلك بان الانسان الاول عمد الى اللباس لستر عورتهِ لانهُ عرف الخير والشرّ يوم كان بدنهُ لا يزال كاسياً حلة كثيفة من الشعر تقيهِ عوادي الاقليم ثم لما اخذ ذلك الشعر الكثيف يزول بالاحتكاك قام اللباس مقامهُ في الدفء

وقد بلغ من لزوم اللباس للناس في مدنيتهم انك قد تتوهم صورة رجل اكتع او ابتر او اعور او اعمى مع المحافظة على كرامتهِ ولا تتوهم صورة رجل عريان ولهُ كرامة. وقد يسكر زيد ويبلغ بهِ السكر حدّ العربدة فلا يهيج فينا منظرهُ على هذا الحال ما يهيج منظرهُ سكران عرياناً. ولو كان سيدنا نوح قد سكر ووقف عند حدّ السكر ما رأى احد ابنائهِ داعياً يدعو الى هزئهِ بهِ اما وقد سكر وتعرى فانا اول من يعذرهُ بسخريتهِ

ومن اغرب مظاهر اللباس انك لا تستطيع فصلهُ عن شخصية المرء. فاذا قيل فلان فانك لا تكون اسبق الى تصور منظره منك الى تصور ملبسهِ. ومهما بلغ من فضل امرئ وعلمهِ وجاههِ وغناهُ وكان حقير اللباس فان الناس لا يستطيعون احترامهُ وقد يحتقرونهُ في وجههِ. وكثيراً ما نلقى اصغر الصعاليك بلباس وثير فنرفعهم فوق قدرهم مهما نعلم من مخابيرهم. حدثني صديق ان اباهُ كان ينزل احدى العواصم الكبرى حيث تعرّف بالوزراء والكبراء. وجار عليهِ الزمان وهو على ذلك الحال فكان يشق كلّ خرش يصل الى يديهِ على العناية بملابسهِ. وقضى ليالي بات فيها طاوياً وكثيراً ما كان يقابل الامير والوزير صائماً فكان يلقى منهما كلّ حفاوة لأُنق ملابسهِ

تقام الاحتفالات الكبيرة بتتويج الملوك واكرام اعاظم الرجال فيصف الواصفون لباس الملك وهذا العظيم او ذاك وقلما تقرأ وصفاً لملامح وجوههم. وجهد ما هنالك ان الواصفين يقتصرون على الاشارة الى شعر الوجه او الراس لا يتعدونهُ

ولم يخل كتاب من كتب الديانات الكبرى من ذكر اللباس ايجازاً او تطويلاً. ففي التوراة وصف مطول لما يجب ان يلبس الكهنة. وفي الانجيل كلام عما يجب ان يلبس الرجل والمرأة في الصلاة. وفي القرآن دعي الزوج والزوجة كلٌّ منهما لباس الآخر حيث جاء « هنّ لباس لكم وانتم لباس لهن » دلالة على شدة اواصر القربى. وليست هذه الدلالة اقل بلاغة وبياناً من قول آدم في التوراة عن حواء « هذه عظم من عظامي ولحم من لحمي ». ومثل ذلك في بلاغته « ولباس التقوى ذلك خير » والتقوى صفة لازمة تخترق العظم واللحم والدم فتسميتها لباساً دليل على ان اللباس ليس دونها في لزومهِ. وقولهُ « فاذاقهم الله لباس الجوع » وقيل في تفسيره انهُ لما بلغ بهم الجوع الغاية ضرب لهُ اللباس مثلاً لاشتمالهِ عليهم كما يشتمل اللباس. اي ان الجوع على شدة وقعهِ في الجسم شبه باللباس والمشبه بهِ فوق المشبه كما هو معلوم

وشبه شاعر عربي الاخلاق باللباس بل سمّى الاخلاق رداء فقال :

من تردّى برداء ما رآهُ لابيهِ
سوف يأتيهِ زمان يتمنى الموت فيهِ

والمعنى ان من يتخلق باخلاق لم تكن لابيهِ فسيصيبهُ ذيت وذيت

وقال آخر

والبس لكل حالة لبوسها اما نعيمها واما بوسها

اي لتكن اخلاقك مطابقة للمحيط الذي يكتنفك والوسط الذي انت عائش فيهِ. وهو يحسن ترهم في زمن الرخاء كيفما دار

قدمت هذه المقدمة بياناً لعظم شان اللباس في كل امة من الامم الغابرة والحاضرة. خبرني من اثق برواياتهِ ان شركة انكليزية تجارية صرفة فاوضتهُ في ان يكون وكيلاً لبضاعتها في الشرق واشترطت عليهِ شرطاً واحداً عدتهُ جوهرياً وهو وجوب خلع الطربوش ولبس البرنيطة مكانهُ فقبل بلا تردّد لان الوكالة

تعود عليهِ بربح كثير هذا اولاً . وثانياً لان الطربوش لم يكن شارة وطنية تشرّف لابسها في عهد الظلم التركي القديم فلا داعي الى التشبث بهِ لغير حاجة ولاسيما ان الاوربي الذي يوظف في الحكومة العثمانية او المصرية مثلاً يلبس الطربوش بحكم وظيفتهِ

وفي هذا العهد الذي قامت فيهِ دول ودالت دول وكثر تبدل الحكومات في كل ناحية من انحاء الارض عرضت مسئلة اللباس وخصوصاً لباس الراس في البلاد التي كانت من قبل عثمانية فحلّ بعض وجوهها ولم يبت البعض الآخر. وفي جميع الادوار التي تقلبت المسئلة عليها لم تخطر الوجهة الدينية ببال اي انّ جميع الذين تناولهم هذه المسئلة على اختلاف مللهم ونحلهم سلموا مبدئيًا بان ليس للدين يد فيها فلا يمنع الدين المسيحي مسيحياً ولا الدين اليهودي يهودياً من لبس اللباس الذي يستحسنهُ ويطابق بيئةَ وبين الاقليم الذي ينزلهُ . كذلك لا يمنع الاسلام مسلماً من لبس ما يشاء كما افتى بذلك بعض كبار الائمة في العهود الاخيرة بشرط ان يكون اللباس لباس وقار وحشمة وهذا مرجعهُ الى العرف لا الى الدين

وقد علّمنا الاختبار ان الغربيين اكثر احتراماً في الغالب للشرقي الذي يتزيى بزيهم من الراس الى القدم ولو ان فئة منهم تحاول ان تظهر بغير هذا المظهر لاسباب ليس هذا محل بسطها . كذلك هم اكثر احتراماً لمن يحسن لغاتهم منهم لمن يجهلها. فاذا كان ذلك كذلك وكنا كلّم دونهم مقاماً سياسيًا وكان الوصول الى المقام السياسي الرفيع اصعب من اقتباس الملابس وتعلم اللغات فلا ارى مانعاً يحول دون تشبهنا بهم في لبس ملابسهم وتعلم لغاتهم الى ان يتبين الاوان الذي نصبح فيهِ على مستوى واحد معهم في المقام السياسي . فاذا صرنا مثلهم في هذا المقام فلنبدّل في ملابسنا كيفما شئنا فلا يسعهم اذ ذاك الاّ احترامنا ولاسيما اذا بلغنا من العلم والمعارف حدّ الابتكار والاختراع فلنلبس حينئذٍ ما نشاء. اما ونحن دونهم مقاماً والمشاهد انهم اكثر احتراماً واخذاً وعطاء لمن يلبس لباسهم ويتكلم بلسانهم فلمَ لا نفعل ذلك

والعلم يجلب القوة كما لا يخفى ومتى صرنا علماء اقوياء واهل اختراع فقد نلبس ما نشاء وقد نحملهم على اقتباس ملابسنا الجديدة وعاداتنا وتعلم لغاتنا ولاسيما